جوزيف ستالين (١٨٧٩-١٩٥٣م)

الرجل الذي أعاد رسم الخارطة

"الهدف من الحياة أن نحيا لهدف"

- روبرت برتز -

رئيس اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية السَّابق من عام ١٩٢٩م وحتى عام ١٩٥٣م، انتقل صاعداً من حياة الفقر والبؤس إلى حاكمٍ للبلاد، التي استطاع نقل مجتمعها من مجتمع فلاحي متخلف إلى مجتمع شكَّل إحدى القوى الصناعية والعسكرية العظمى في العالم حيث أصبح أحد قطبي العالم لما يقارب نصف قرن.

نشأته:

ولد ستالين في ٢١ ديسمبر ١٨٧٩م في مدينة جوري التي تقع بالقرب من تبليسي في جورجيا، وهي منطقة جبلية في جنوب غربي روسيا. وكان اسمه الحقيقي إيوسيف فيساريونوفيتش جوغاشفيلي. أما اسمه "ستالين" فقد اشتق في عام ١٩١٣م من كلمة روسية معناها "الرجل الفولاذي".

- ستالين مراهقاً عام ١٨٩٤م-

كان والده إسكافياً فقيراً يدمن الخمر، ويكثر من ضرب ابنه الصغير بقسوة. وعندما أصبح ستالين في الحادية عشرة من عمره توفي والده تاركاً عائلته الفقيرة بلا معيل. فقامت الأم بإرسال ابنها إلى المدرسة الروسية للمسيحية الأرثودوكسية التي طرد منها عام ١٨٩٩ لنشره المبادئ الثورية، ومن ذاك الوقت انتظم ستالين ولفترة ١٠ سنوات في العمل السياسي الخفي وتعرض للاعتقال، بل والإبعاد إلى "سيبيريا" بين الأعوام ١٩٠٢ إلى ١٩١٧، اعتنق ستالين المذهب الفكري لـ "فلاديمير لينين"، وتأهّل لشغل منصب عضو في اللجنة المركزية للحزب البلشفي في عام ١٩١٢م.

- ستالين عام ١٩٠٢م -

- وفي عام ١٩١٢م -

الحياة السياسية:

تقلّد ستالين منصب المفوّض السياسي للجيش الروسي في فترة الحرب الأهلية الروسية وفي فترة الحرب الروسية البولندية، وتقلّد أرفع المناصب في

الحزب الشيوعي الحاكم والدوائر المتعددة التابعة للحزب. وفي العام ١٩٢٢، تقلّد ستالين منصب الأمين العام للحزب الشيوعي، وحرص ستالين على أن يتمتع منصب الأمين العام بأوسع أشكال النفوذ والسيطرة. بدأ القلق يدبّ في لينين المحتضر من تنامي قوة ستالين، ويُذكر أن لينين طالب بإقصاء "الوقح" ستالين في أحد الوثائق إلا أن الوثيقة تمّ إخفاؤها من قِبل اللجنة المركزية للحزب الشيوعي.

- بطاقة سجين خاصة بستالين مأخوذة من ملفات الشرطة القيصرية السرية في سانت بطرسبورغ

بعد ممات لينين في يناير ١٩٢٤، تألّفت الحكومة من الثلاثي: ستالين، وكامينيف، وزينوفيف، إلاّ أن ستالين استطاع التغلب عليهما وانفرد بالقيادة بعدما كانت الحكومة ثلاثية الأقطاب، وتم ذلك في عام ١٩٢٨م.

الحكم ... والدكتاتورية:

حكم ستالين حكمًا دكتاتوريًا خلال معظم سنوات حكمه. وأعدم أو سجن معظم الذين ساعدوه في الوصول إلى سُدَّة الحكم، لخشيته من أن يكونوا مصدر

تهديد لحكمه. وكان مسؤولاً أيضاً عن موت كثير من الفلاحين السوفييت الذين عارضوا برنامج الزراعة التعاونية الذي يقوم على تأميم المزارع واستبدال الحقول الزراعية البدائية بحقول زراعية ذات تجهيزات حديثة، ويجبر الإقطاعيين ببيع غلاتهم الزراعية على الحكومة بسعر تحدده الحكومة نفسها، بينما يأخذ الفلاح أجره على قدر جهده، وقد أدت تبعات سياسته هذه إلى حدوث المجاعة التي ألّمت بالاتحاد السوفييتي بين الأعوام ١٩٣٢ و١٩٣٣ والتي راح ضحيّتها ما يقرب من ٥ ملايين روسي.

- صورة تجمع ستالين ولينين في مارس ١٩١٩م -

- ملصق يوضح جانب من الدعاية السياسية التي انتهجها ستالين، كتب فيه: "ستالين المحبوب يُشكر من قبل الشعب -

وكغطاء قانوني مفضوح رتّب ستالين لعقد المحاكمات الهزلية في العاصمة موسكو لتكون قدوة لباقي المحاكم السوفييتية. فكانت المحاكم الهزلية غطاءً سمجاً لتنفيذ أحكام الإبعاد أو الإعدام بحق خصوم ستالين تحت مظلّة القانون! ولم يسلم "تروتسكي"، رفيق درب ستالين من سلسلة الاغتيالات الستالينية إذ

طالته اليد الستالينية في منفاه في المكسيك عام ١٩٤٠ بعد أن عاش في المنفى منذ عام ١٩٣٦ ولم يتبق من الحزب البلشفي غير ستالين ووزير خارجيته "مولوتوف" بعد أن أباد ستالين جميع أعضاء اللجنة الأصلية.

- مجموعة من العمال السوفييت الذين أجبرهم ستالين على برنامج الزراعة التعاونية -

ومن مظاهر دكتاتورية ستالين أنه أعدم مليون نسمة بين الأعوام ١٩٣٥ - ١٩٣٨ والأعوام ١٩٤٥ - ١٩٥٠ وتم ترحيل الملايين ترحيلاً قسرياً! في ٥ مارس ١٩٤٠، قام ستالين بنفسه بالتوقيع على صكّ إعدام ٢٥,٧٠٠ من المثقفين البولنديين، وتضمّن القتلى ١٤,٧٠٠ من أسرى الحرب، وقضى على ٣٠,٠٠٠ - ٤٠,٠٠٠ من المساجين فيما يعرف "بمذبحة المساجين". ويتّفق المؤرّخون على أن ضحايا الإعدامات والإبعاد وكذلك المجاعات السوفييتية تقدّر بـ ٨ إلى ٢٠ مليون قتيل! وأحد التقديرات تقول إن ضحايا ستالين قد يصلون إلى ٥٠ مليون ضحيّة. يظلّ عدد الضحايا في الحقبة الستالينية ضرب من التقدير لعدم ورود أرقام رسمية سوفييتية أو روسية بعدد ضحايا تلك الحقبة.

الحرب العالمية الثانية:

بعد توقيع اتفاقية عدم الاعتداء بين الاتحاد السوفييتي وألمانيا النازية بعامين، قام هتلر بغزو الاتحاد السوفييتي ولم يكن ستالين متوقعاً للغزو الألماني.

فكان ستالين توّاقاً لكسب الوقت ليتسنّى له بناء ترسانته العسكرية وتطويرها إلا أن هتلر لم يترك الاتحاد السوفييتي يؤهّل نفسه عسكرياً. وأصبح الاتحاد السوفييتي حليفًا للولايات المتحدة وبريطانيا ضد ألمانيا.

- توضح الصورتان جانباً من تبعات تصفية الخصوم في عهد ستالين، في الصورة الأولى عميل سوفييتي يسير بجانب ستالين، قتلته الاستخبارات عام ١٩٤٠م فأزالت صورته (الصورة الثانية) لأجل إخفاء ذكره

تمكّن الألمان من جني الانتصارات العسكرية في بداية غزوهم للاتحاد السوفييتي نتيجة ضعف خطوط الدفاع السوفييتية الناتجة عن إعدام ستالين لكثير من جنرالات الجيش الأحمر. وتكبّد الاتحاد السوفييتي خسائر بشرية فادحة في الحرب العالمية الثانية، إذ كان الألمان يحرقون القرى السوفييتية عن بكرة أبيها، وتقدّر خسائر الاتحاد السوفييتي البشرية في الحرب العالمية الثانية من ٢١ إلى ٢٨ مليون نسمة!

العلاقات الخارجية:

وفي عهد ستالين كان الاتحاد السوفييتي يُدير شبكة عالمية من الأحزاب الشيوعية. وعند وفاته كانت الشيوعية قد انتشرت في ١١ بلدًا آخر.

عُرفت السياسات التي سادت بين المعسكرين الشرقي والغربي خلال السنوات الأخيرة من حكم ستالين للاتحاد السوفيتي السابق بـ"الحرب الباردة" التي اتحدت فيها عدة بلدان غير شيوعية لوقف انتشار الشيوعية. لم يكن ستالين يملك شيئًا من السحر الشخصي، وكان قاسيًا حتى على أصدقائه المقربين، ولم يكن يقبل النقد كما لم يكن يصفح عن أي معارض له.

- الثلاثة الكبار في أثناء اجتماعهم في الحرب العالمية الثانية، وهم ستالين وروزفلت وتشرشل -

التهجير القسري:

بعد الحرب العالمية الثانية بقليل، قام ستالين بترحيل مليون ونصف المليون سوفييتي إلى "سيبيريا" وجمهوريات آسيا الوسطى. وكان السبب الرسمي هو إمّا تعاونهم مع القوات النازية الغازية أو معاداتهم للمبادئ السوفييتية! والمُعتقد أن سبب الترحيل الجماعي هو التّطهير العرقي لكي يتسنّى لستالين من إيجاد توازن اثني في الجمهوريات السوفييتية.

نهاية العهد:

في الأول من مارس ١٩٥٣، وخلال مأدبة عشاء بحضور وزير الداخلية السوفييتي "بيريا" و"خوروشوف" وآخرون، تدهورت حالة ستالين الصحية ومات بعدها بأربعة أيام، ولم يعلن الأطباء خبر موته مباشرة، بل انتظروا فترة ليست بالقصيرة؛ وذلك خشيةً من أن يكون في غيبوبة وسيستيقظ منها... ويعرفون جميعاً مصير الذي يعلن وفاته وهو لا يزال على قيد الحياة!

- جثة ستالين داخل متحف لينين -

واليوم وبعد أكثر من نصف قرن على رحيل ستالين، لا يزال الجدال حول تاريخه ومدى دكتاتوريته ووحشيته مستمراً، إلاّ أنه من شبه المؤكد أن عدد ضحاياه يفوق عدد ضحايا جنكيز خان وهولاكو وهتلر وغيرهم ممن سببوا جرائم ومذابح عظيمة، وهو صاحب أكبر رصيد تاريخي في عدد الضحايا ولاشك. لكن هنا تبرز ملاحظة مهمة، وهي لماذا لم نسمع عن ستالين كمجرم بينما يتبادر إلى أذهاننا اسم هتلر حال سماعنا لألفاظ الإجرام والوحشية؟ أعتقد أن الإجابة تكمن في أن الإعلام الغربي -المسيطر- ضلل لمدة طويلة الحقائق التي تثبت تورط ستالين بجرائم ومذابح شنيعة لا توصف، وذلك بسبب

فضله العظيم على أوروبا وأميركا بتحالفه معهم ضد الألمان ودوره الفعال في القضاء على هتلر، الذي ألبسه الإعلام الغربي -منذ الحرب العالمية الثانية وحتى اليوم- كل قطرة دم سالت في الحرب.

كلامي هذا ليس دفاعاً عن هتلر ولكنه رغبة مني في أن نفهم أن المنتصر هو من يكتب التاريخ، وأنه إذا أردنا أن نعرف التاريخ على حقيقته علينا أن نعرف المؤرخين على حقائقهم.